من يذكر طه حيدر؟ الموت في الزمن المسلح!

سلام عبود

كنت أود أن يكون عنوان مقالتي هذه: من يعرف طه حيدر؟ لكنني عدلت عن ذلك وجعلته: من يذكر طه حيدر؟ فالموضوع يتعلق بالذاكرة لا بالمعرفة. ففي التذكر يوجد قدر من الواجب الأخلاقي. قدر من الحنين. قدر من المشاركة الحسية في الوجود. الذي قد يكون مجرد وجود عابر. وربما يصل الى حدود الرفقة الحزبية والسياسية. وقد يتسامى الى حدود الصداقة الخالصة.

فمن يذكر طه حيدر؟

قلة قليلة أولئك الذين يذكرون طه حيدر.

من يعرف بأمر رحيله؟

قلة قليلة من تلك القلة هم الذين عرفوا أنه رحل عنا. سبب ذلك يعود. من دون شك. الى ضمور الذاكرة وخياناتها.

ولكن كم من الأصدقاء مشى خلف جنازته؟

لا أحد. نعم. لا أحد. فقد ذهب طه وحيدا في رحلته الطويلة الأخيرة.

ترى. ماذا فكر في تلك اللحظة. وهو يرى فراغا مميتا يطعن ظهره؟

رحل طه ملفوفا بعلم الصمت والخيبة.

فلم يدبج شاعر صغير أو كبير شطرا من بيت شعر في رثائه.

لم تفتح أبواب النوادي "الثقافية". المنتشرة مثل الفطر في المنافي. لقبول التعازي فيه.

لم تنشر مواقع الانترنيت. التي تملأ الشاشات. حرفا عنه.

لم تنشر صحف الثقافة أو السياسة خبرا عن موته. عدا ذلك الخبر المقتضب. اليتيم. الذي نشرته الصحيفة التي تسببت في نفيه وغربته المميتة.

ولماذا يجب أن يفعلوا ذلك؟

لا موجب لذلك. فهو مجرد رقم ميت في معركة الحياة الجديدة. معركة الأرقام والحسابات والمصالح.

لا موجب لذلك. فهو مجرد كائن مستقل في غابة الولاءات الطائفية والعرقية والحزبية.

لا موجب لذلك. فهو مجرد عابر سبيل في دروب الوقيعة. جاء ومضى. حينما همست اليه زوجته اليمنية. وهو على فراش الموت في أحد مستشفيات عمان. قائلة:

العراق قريب!

نظر اليها بإشفاق وأطبق جفنيه. حابسا دمعة حمراء. كادت تفر من عينه. التي غشاها ضباب الرحيل.

العراق! أي عراق؟

العراق الذي تركه خلفه. قبل الهروب الكبير. لم يعد العراق ذاته. الذي كان يحفظ طرقاته. عن ظهر قلب.

والصحيفة التي عمل فيها. لم تعد هي ذات الصحيفة. فقد كسرت مطارقها مناجلها.

والرفاق! أين الرفاق؟

أما الأصدقاء فهم لا يقلون عنه وحدة. هم أيضا يسيرون نحو الخاتمة. وسط غابات الفراغ المسنن.

وماذا يفعل هناك. في العراق؟ ماذا سيقول لهم؟

ماذا سيقول للأزقة التي لعب فيها مثل طائر لا يكل عن الطيران. وهو يعود الآن محمولا على محفة الموت؟

ماذا سيقول للمكتبة. وعيناه تغزوهما ديدان الموت.

ماذا يقول لسنواته العشرين التي نسيها هناك. وهو يعود الآن حاملا معه أكثر من خمسين من السنين. مثقلات بالغربة والخيبة؟

ماذا عساه أن يقول؟

غادر طه حيدر وطنه في نهاية السبعينيات وتوجه نحو دمشق ثم بيروت فعدن. وفي عدن توقف ثم مكث. تزوج وأنجب. عمل محررا في صحيفة ١٤ اكتوبر. نشر مقالات سياسية واجتماعية وكتب قصصا قصيرة. أصدر مجموعته القصصية الأولى عام ١٩٨٩ في عدن تحت عنوان " وشمان للأرض والحبيبة". والتي كانت صوتا مفعما بالأمل. وفي الوقت ذاته صوتا مشحونا بالغضب على سلطة القمع الديكتاتوري. وعلى لصوص الحياة. الذين سرقوا تاريخ الشعب. وأثناء مكوثه في عدن تخصص في الإعلام الرياضي حتى أضحى. من دون مبالغة. أهم الصحافيين الرياضيين في اليمن الديمقراطية. وعدت وزارة الثقافة اليمنية بطبع مجموعته القصصية الثانية في أربعينيته. تخليدا له وعرفانا بدوره واسهامه الكبير في الصحافة اليمنية.

في عام الهروب الكبير عام ١٩٧٨ حينما وفدت الى عدن. أسوة بكثيرمن العواصم. أعداد كبيرة من الفارين من بطش السلطة الجائرة. كان طه حيدر أحدهم.

في ذلك الزمن البعيد. في مساءات عدن الرطبة. حينما يبدأ النوم يداعب أجفان البشر. كان الناس. سكان العمارات السكنية في المنصورة خاصة. يسمعون الصوت الخشن لـ " أبو حاتم". نائب مسؤول منظمة الحزب الشيوعي العراقي في عدن. وهو يصيح بصوت جهوري مخمور:

- شدوا جنطكم يا رفاق. شدوا جنطكم!

ومن خلف إحدى النوافذ يأتي صوت إحداهن. وقد أيقظها صوت "أبو حاتم":

عيوني " أبو حاتم" الورد. الجنط مشدودة . بس ننتظر أوامركم. يا رفيق.

تذكر طه حيدر. وهو على سرير الموت. صوت "أم أورورا" الرفيع الصائت. الذي يشبه أصوات الصراصير. فضحك ببراءة ميت.

كانت زوجته تنظر اليه بذهول وجزع. وهي تراه يضحك مغمض العينين . متوقف القلب والأنفاس.

لم تكن تعي سر تلك الضحكة.وسر هذا الخبل العراقي. فهي لم تر من قبل ميتا يضحك!

لقد ذهب طه ولم يخبرها أن رفيقته القديمة "أم أورورا" ماتت مثله. في منفى آخر. على سرير مرض آخر. ولم يكن يقف قرب رأسها سوى زوجها. الذي كان يداري خيبته وأحزانه. وهو يروي لها نكتة قديمة لم تعد تضحك أحدا. نكتة طالما أضحكتها في ذلك الزمن المالح. البعيد. حينما كان " أبو حاتم" يمر تحت نافذتهم ويوقظهم من النوم صائحا بصوت آمر:

- شدوا جنطكم يا رفاق!

أيها العزيز طه! نم. حرستك آلهة المنافي.

نم. أنت لست في عوز الى حقيبة. لكي ترحل. فأنت في أعماق الرحيل.

لقد رحلت خفيفا. بلا حقائب. بلا أصدقاء. بلا مودعين أو معزين.

نم. ففي الأزمان المسلحة تفقد القصائد ذاكرتها. يفقد القطيع واجبه الإنساني.وتفقد الكلمات ضميرها.

وفي الزمن الدائري تتحجر الذاكرة حينما يمر طيف رجل عابر مثلك. طيف عابر. مسالم. قرر أن يشق دربه. دون أن يربط عنقه بسلاسل أحد.

ولكن. تذكر!

ستعود. يا طه. الى عراقك مبجلا. وسيعود معك إرثك. الذي قاتلت به منفى الديكتاتور ودكتاتورية المنفى.

ستعودان معا. أنت وثقافة المنفى المقاومة.

ستعودان حينما تكون الذاكرة أقل أميركية مما هي عليه الآن.

وحينما يكون الضمير أكثر عراقية مما هو عليه الآن.

ستعود محمولا على أكتاف الوطن الأم. أكتاف عراق وفي. ثاقب الذاكرة.

ملف مجلة (مغزين ليتيرير) لشهر كانون الثاني ٢٠٠٥

الأدب ومعسكرات الأعتقال

عرض جودت جالي

قبل ستين عاما وفي مثل هذا الشهر من عام ١٩٤٥ وتحديدا في السابع والعشرين منه تحرر المعتقلون (الناجون منهم) من المعسكر النازي الرئيس أوشفتز . يبدو لي أن هذا الملف جاء لتحقيق معادلة أعلامية هيمنت طوال الأعوام الستين الماضية ولكنها تتعرض الى الأختلال منذ وقت قريب لتنامي الشعور في الغرب عموما وعند المثقفين خصوصا بأن الأسراف في التذكير بأضطهاد اليهود في أوربا وبمعسكرات الأبادة يندرج ضمن التعبئة الأعلامية لصالح القضية الأسرائيلية أساسا(لاأعني طبعا أن الملف تناول هذه القضية كموضوع للنقاش وأنما كأيحاء على طريقة الأعلام الغربي فليس صدفة أنه في هذا الشهر خصصت كل دورية في فرنسا مساحة كبيرة للموضوع نفسه. مجلة لونوفيل أوبزرفاتور أيضا ضمت في عددها الأخير ملفا عن أوشفتز والغلاف زينته صورة مناسبة والمجلات التي لم تصدر أعدادها بعد سيكون لكل منها سهم في هذا الاتجاه ولايبدو أنهم يملون من هذه البكائية ولكنهم والحق يقال يقدمون بكائيات ذكية جذابة كل مرة فيها جديد)، ولعلنا ذكرنا سابقا أننا من خلال متابعتنا لما يصدر من دوريات لاحظنا أنه لايوجد عدد من صحيفة أو مجلة في الأيام العادية يخلو من مادة ولو على سبيل المتابعة السريعة تتناول كاتبا أو كتابا أو أستذكارا له علاقة بالأنتماء اليهودي عموما أو بالذاكرة اليهودية التي لم يبخل القائمون عليها بتنظيم مفكرة محتشدة بالمناسبات لايفلت منها يوم.

هل يعني هذا أن الملف يخلو من الاعمال الأبداعية ويجب أهماله ؟ المعسكرات والابادة (بعيدا عن استثمارها لغض الطرف عن أبادة الأخرين بالمقابل) حقيقة تأريخية أستلهمت منها أعمال أبداعية شامخة في الأدب والفلسفة . على خرائب الزمن النازي ولد أدب ولكن ولادته لم تكن دون قلق أو تردد، فالبعض من الكتاب الذين عاشوا التجربة المؤلمة أخذوا يشعرون بعبثية الكتابة عنها كونها عصية على الوصف بالنسبة اليهم بحيث يعجزون عن نقل صورة الألم الطاغي الى ألآخرين أذ يقول أدورنو في (نقد الثقافة والمجتمع) موضحا (أن كتابة قصيدة بعد أوشفتز عمل بربري .....أصبحت كتابة قصائد تفي صورة الدمار حقها مستحيلة) مع ذلك تفرض ضرورة الكتابة نفسها فميشلين موريل في كتابها (معسكر عادي جدا) تقول (كل ناج حمل في داخله عند عودته معسكره) وأراغون في (المتحف) يقول (أوشفتز ! أوشفتز ! يالهما من مقطعين داميين !). كتاب وفلاسفة وشعراء يدلون بشهاداتهم بصوت منفرد عن تجربة المعتقل ليس في ظل الألمان فقط بل عن تجربة الكولاك ومعسكرات السخرة في ظل نظام ستالين أيضا . كيف تكون الكتابة ويكون التفكير بعدها؟ يمر الأبداع بين ضرورة الكلام وبين اليأس منه، بين ضرورة البوح بالهم وبين الصمت، من بريمو ليفي الى أيمر كيرتيش، ومن الحكاية الى الرواية تصطف وجوه أدب يصارع الذي لايوصف . رأى ثيودور أدورنو أنه بعد أوشفتز يبدو الفن عموما، والشعر خصوصا، غير قابل للتصور . وبالنسبة لفينغشتاين فأن ماحدث (لايمكن التعبير عنه)، أما آخرون مثل بول سيلان الشاعر الروماني الذي أنتحر في باريس فيما بعد فأنه ليس فقط عبر عن كل شيء أنطلاقا من أوشفتز بل وأختار اللغة الألمانية بالذات أداة للتعبير عن موت شاسع مكون من الليل والضباب : (ياحليب الصبح الأسود، نحن نشربك في الليل، نشربك وسط النهار، الموت سيد قادم من ألمانيا) –من ديوان خشخاش وذكرى) .

أعتبارا من عام ١٩٤٧ أشار بريمو ليفي الى أن ضرورة البقاء حيا وأداء الشهادة يرتكزان على مستوى واحد (كتبت فور عودتي كل ماشهدته أذ كان يجب علي التحرر من عبئه، بالأضافة الى هذا فأن الأدلاء بالشهادة واجب على الصعيد الأخلاقي والسياسي) ولكن بريمو ليفي فشل في (التحررمن عبئه) مادام انه قد أضطر أخيرا الى أن يضع حدا لحياته بيده كما فعل سيلان وجان آميري وبرونو بوتلهايم . هل هم قتلوا أنفسهم أم هو القتل المؤجل أدركهم من أوشفتز ولو بعد حين ؟.

(أنتم يامن تعيشون بمنتهى الهدوء، يامن تجدون الدفء في منازلكم حين تدخلونها مساء، تتلقاكم الوجوه الصديقة وبانتظاركم تعد المائدة، قدروا أن كان الذي ترون أنسانا !، هذا الممرغ في الطين، الذي لايعرف معنى الراحة، الذي يكافح من أجل كسرة خبز، الذي يموت شوقا الى من يبادله الكلام، قدروا أن كانت هذه أمرأة !، هذه التي فقدت أسمها وجز شعرها، لكي تتذكروا .. فكروا وأنتم في بيوتكم، وأنتم في الشارع، في منامكم، في يقظتكم، كرروا ذكرها على أطفالكم، حين تتقوض منازلكم، حين يهدكم المرض، حين يتخلى عنكم أولادكم، قدروا ...أن كان هذا الذي ترون أنسانا.....،) .

في هذا الملف عدة مقالات وبحوث منها : (لقد منحوا الذي لايمكن تسميته أسما، الفنانون في معسكرات الأعتقال - ثلاث مقالات، ثيودور آدورنو : هل ماتت الثقافة في أوشفتز ؟، الشعراء في مواجهة معسكرات الأعتقال، من الرعب الى الأدب، جورج سيمبرون : الرحلة العظيمة للذاكرة ، يوميات الرعب، بريمو ليفي : من ناحية الخير والشر، من الجحيم الى العدم، رواية لوتيتيا، الممر الى الخيال الأدبي) وغيرها .

يا لهذا المدى

شعر: حمد شهاب الانباري

نبتدي الان يا وحشتي انها ساعة قد تطول.
نبتدي...
خطوة تستدق نهاياتها..
حجر كلسته سنون الكآبة
او غابة من ذهول!!
كل ما فيك يشقى بصمت
ويفتح للريح باب التمني
هذه حكمة ان تظل الكتابة موارة بالبكاء
وتغدو القصيدة موتاً زؤاما..
وانشودة من رثاء
يا لهذا الدوار!!
كله لغة لا تفسر..
او ساحة للفرار.
الذي دلني للهداية اعمى..
فتهت بمنطعف ضلني..
وقع اقدامهم ضلني..
وفؤادي الذي كنت اركن في هدأة الليل
مستأنساً نبضه ضلني.
هكذا يبتدي عنفوان الضياع..
ضجر دائم..
وصداع يطوق صدغيك
او رجفة في النخاع..

ادباء العراق يصدرون بيان استنكار ضد قناة الجزيرة

جلال حسن

في بيان استنكار وقع فيه المئات من الادباء والمثقفين العراقيين بغلق مكاتب قناة الجزيرة نهائياً، وطالبوا بطرد مراسليها من العراق ادانة للدور المغرض والتحريضي على العنف المنحاز للعمليات الارهابية في البلد، والتي ما فتئت تنقل رسائل المجرمين والقتلة المسؤولين عن عمليات الذبح الوحشي وقطع الرؤوس البريئة، وتفجير انابيب النفط ومنشآت الكهرباء والمساجد واغتيال العشرات من رجال الدين والدولة وعمليات الخطف وقد اختارت قناة الجزيرة متطوعة تبرير عمليات القتل والاجرام والحث عليه بقصدية واضحة من خلال تقديم رموز الارهاب نجوما من اعمال العنف والكراهية التي انعكست سلباً حتى قرف منها المشاهد العراقي. ومن بين الموقعين على وثيقة التنديد والاستنكار الشاعر كاظم غيلان الذي قال: تضامنا مع البيان الذي اصدره مثقفو وادباء الخارج والذي وقع فيه اكثر من ٥٠٠ عراقي استطعنا الحصول على مئات التواقيع من ادباء العراق في بيان كتبه الدكتور خزعل الماجدي نستنكر فيه هذه الفضائية التي تنشر دائماً وباستمرار اخباراً تدافع فيها عن الارهاب الذي يجتاح عراقنا الذي يمر بأقسى فترة من تاريخه المعاصر، ارهاب لم يميز فيه بين الطفل والشيخ والمرأة، وتروج قناة الجزيرة دائماً الى ان العراقيين خونة ويستحقون القتل، تقولها بدون خجل وبكل لؤم، وتذيع اخباراً تدافع فيها عن الارهاب ونظام القتلة، وهذا يؤكد لنا ان العاملين فيها هم اعضاء من المنظمات التي تخطف الناس الابرياء، فهم الذين يعدون سيناريو الخبر. وصحفي الجزيرة هو الذي يصوغ رسائل التهديد ليقرأها الارهابيون.

وأشار الناقد علي دنيف حسن بقوله: لسنا اعداء لحرية الصحافة والرأي الآخر، لانها من الحريات المقدسة ومرتكز اساسي للديمقراطية ومن عناصر حقوق الانسان، لكن هناك فارقاً جوهرياً واضحاً بين نشر الرأي والخبر، وبين التحريض على القتل والتفجير من خلال تمجيد من يقومون بالجرائم وتبريرها او نشر دعايات تحرض وبكل صلافة على القتل والكراهية، وبالتأكيد لسنا في وضع سياسي متين ومستقر حيث لا تجري فيه هذه الموجة من الارهاب الدموي الذي يمارس باسم الاسلام ومعهم المجرمون والقتلة من الذين اطلق سراحهم النظام قبل سقوطه، وبين الشاعر منصور عبد الناصر بأنه لا هم لهذه القناة غير اظهار الفوضى ولا تريد ان ينعم العراق بالاستقرار، وانها تترحم على النظام المقبور الذي كان يمولها بكوبونات النفط، وتبقى هذه الفضائية اللسان الفصيح للارهاب بكل خسة ووحشية، ترى لماذا لم يستنكروا خطف الصحفي الايطالي من قبل والذي تم اعدامه امام شاشة الجزيرة (آنزو بالدزني) الذي كان متطوعاً في منظمة الصليب الاحمر الدولي اضافة الى عمله كصحفي مستقل، ترى من اوصل رسالة الارهابيين الوحشية الى العالم...؟ وكيف عرف الناس باعدامه على يد القتلة..؟ اعتقد ان الاجابة واضحة ولا تخفى عن العراقيين. واكد الصحفي عبد اللطيف الراشد ان هذه الفضائية تقدم اوكسجين الدعاية للارهابيين لعرض جرائمهم البشعة وانها لا تستحق حمل الامانة كشاهد هو شريك في الجريمة ويتحمل دم الضحايا الابرياء. واقترح الباحث التاريخي كريم حنش غلق مكاتب الجزيرة وطوال فترة المرحلة الانتقالية ولحين ضمان استقرار العراق وقيام نظام ديمقراطي برلماني حقيقي ومستقر كذلك ان يقاطع المسؤولون في الدولة انفسهم وسائر الساسة والمواطنين في عموم العراق والكتاب والمثقفون الحريصون على امن العراق هذه القناة الخبيثة وعدم التعامل معها لانها سرطان يفتك بآراء المغفلين. اما السيد كاظم الحسن فقال: نتفق مع مبدأ الديمقراطية والحرية في عراق جديد يحترم الصحافة والاعلام، لكني اريد توجيه انذار مسبق لما يسيء الينا من اخبار وتقارير كي لا تخترق حدود المهنة التي تتطلب شيئاً من المصداقية ونقل الحقيقة دون زيف مع عدم اثارة مشاعر الناس.

وداعا جلال الخياط

توفي في لندن بعد انتكاسة صحية مفاجئة الناقد الدكتور جلال الخياط، بعد صراع مرير مع المرض ، وقد ووري جثمانه الثرى في مقبرة غرينفورد غربي العاصمة البريطانية.

ويعد الفقيد واحدا من النقاد العراقيين الذين اغنوا المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات في النقد الأدبي لا سيما في الشعر الحديث حيث كانت له إسهامات أكاديمية مشهودة في التأليف والتدريس والبحث في العديد من الجامعات العربية والبريطانية.

ولد الدكتور جلال الخياط في مدينة الموصل عام ١٩٣٢ وبعد تخرجه من دار المعلمين العالية (كلية التربية حاليا) عام ١٩٥٥ عين مدرسا لمادة اللغة العربية وآدابها في الثانويات العراقية .وفي ١٩٦١ منح بعثة دراسية لنيل شهادة الدكتوراه في النقد الأدبي من جامعة كمبردج البريطانية حيث تتلمذ هناك على أيدي كبار المستشرقين من أمثال هوبكنز وسرجنت وآربري وغيرهم. وتعالج الأطروحة التي تقدم بها لنيل الدكتوراه مفهوم الحداثة في الشعر العراقي.

انضم الدكتور جلال الخياط بعد عودته من كمبردج إلى قسم اللغة العربية العريق في كلية الآداب /جامعة بغداد . والى جانب اشرافه على العديد من رسائل الدراسات العليا في الجامعة واصل نشاطه العلمي بكل جد وتواضع بعيدا عن الأضواء ووسائل الإعلام ليصدر مجموعة كبيرة من الكتب النقدية والتحقيقات التي كان من أبرزها: الشعر العراقي الحر: مرحلة وتطور ١٩٧٠ و التكسب بالشعر ١٩٧٠ والشعر والزمن ١٩٧٥ والمثال والتحول في شعر المتنبي وحياته ١٩٧٧ والأصول الدرامية في الشعر العربي ١٩٨٢ واحمد الصافي النجفي: عالم حر ١٩٨٧ إلى جانب العشرات من المقالات والبحوث التي نشرها في الدوريات الأدبية التي تصدر في العالم العربي.

وقد نشر الدكتور جلال الخياط أثناء إقامته في بريطانيا في السنوات الأخيرة عددا من المقالات النقدية في الصحف العربية لا سيما في (الشرق الأوسط) التي اسهم في رفدها بالدراسات الجادة في الأدب الحديث. وقد خلف الفقيد عددا من المخطوطات التي كان ينوي نشرها مستقبلا من بينها مسودة كتاب ضخم كان سيحمل عنوان (الجنون في الشعر) الذي يمثل ثمرة جهود مضنية بذلها الفقيد على مدى سنوات طوال.